دور شعر الأطفال في تنمية الهوية الثقافية الوطنية

أ. د. سماح خالد زهران

أستاذ علم النفس الاجتماعي، ورئيس مجلس قسم تربية الطفل بكلية البنات، جامعة عين شمس

١. ما هو شعر الأطفال؟

الشعر هو الكلام الموزون المقفى، والكلام البليغ والمسجوع الذي يقوم على خيال الشاعر ويعتمد على التأثير في المتلقي. (المعجم العربي الأساسي، ص ٦٨٩).

والشعر المقدم للطفل بنفس هذا النمط مسجوع مقفى مغنى يسهل عليه فهمه؛ لذلك فهو يختلف شكلًا وعرضًا باختلاف المرحلة العمرية؛ ففي الطفولة المبكرة قبل تعلم القراءة يعتمد الطفل على الاستماع للغناء في كلمات شعرية كما النشيد يسهل عليه فهمها وترديدها، إذ تكون في إطار قاموسه اللغوي البسيط بالعامية الدارجه في وطنه أو بالفصحى البسيطة التي تنميه لغويًا ويسهل عليه فهمها وترديدها أيضًا، ومن أمثلة أناشيد الروضة البسيطة:

ألف باء بوبايه أنا أكتب على اللوح

وأنتم تقولوا ورايا

يلاحظ هنا السجع في أول الكلام وآخره: بوبايه، ورايا، وهي بلهجة عامية لترغيب الطفل في الذهاب للروضة وتعلم الهجاء وكتابته، ويسهل عليه

ترديدها، وكلمة بوبايه هنا كلمة افتراضية عامية لزوم السجع تطرب الطفل وتحببه في ترديد النشيد بسهولة.

أيضًا أغنية عن القطة: اسم الدلع ده بسبسة نظيفة وريحتي كويسة

يلاحظ قصر العبارات المقفاة؛ لتتناسب مع بساطة عمر الطفل ولا تسبب له الإحباط كلما طالت وصعب عليه تذكرها، وفي قاموسه اللغوي أيضًا، مثل هذه الجرعات الأولية البسيطة تشجعه نفسيًا لسهولة حفظها؛ فيتعلم من خلالها ويكتسب الثقة بالنفس، وكذا الهوية الوطنية لهجةً وفكرًا وثقافةً، والهوية القومية لغةً وفكرًا وثقافة.

وبنهاية الطفولة المبكرة عند السابعة من العمر يمكن ترقيته تمهيدًا للطفولة الوسطى، كما في شعر أمير الشعراء (أحمد شوقي) للأطفال:

قطتي صغيرة واسمها سميرة

هي لي كظلي في وقت الظهيرة

هنا نلاحظ بدء طول الكلام المغنى وكونه بالفصحى تمامًا لتنمية قاموسه اللغوي، وإكسابه بعض المعلومات عن ظل الإنسان – مثلًا– والذي يظهر معه ويلازمه في الضوء، ويبدو جليًا وقت الظهر، فيظهر دور الشعر في التنمية اللغوية والفكرية والثقافية المذكورة سابقًا.

في مرحلة الطفولة الوسطى تتنوع موضوعات الشعر أكثر، وتطول الأبيات، ربما لتحكي للطفل قصة أو تنمي معرفته بمختلف مجالات العلوم،

وكذا المناسبات الاجتماعية والدينية والقومية والوطنية المختلفة، مثل: نشيد خلية النحل: شعر (محمد زين العابدين):

في داخل الخلية شغالة دؤوبة تطير في الصباح وتقطع الدروبا
لتنتقي حقولًا أزهارها رطيبة
لتنهل الرحيق من زهرة مرغوبة وتجمع اللقاح في سلة عجيبة
سبحان من ألهمها النحلة الذكية سبحان من أبدعها بهذه السجية

وتتدرج الأشعار بهذه الطريقة فتبدأ بسيطة في بداية المرحلة، ثم تزداد طولًا ومفردات جديدة، وتنوعًا بنهاية المرحلة.

وكذلك قصيدة المولد النبوي: شعر (عادل حماد سليم):

جاءت الأنوار تشهد مولد الهادي محمد
رحمة ربي اصطفاه في هداه الناس تسعد
مرسل يهدي السلاما أمة بالحب شيَّد
كان للخيرات مهدًا مولد الهـــادي محمد

في نهاية مرحلة الطفولة – بالطفولة المتأخرة، تسير القصائد والأشعار على نفس المنوال من التنوع إلا أنها تزداد طولًا، وتبدأ في مناقشة قضايا ربما فلسفية عامة أو إنسانية.

ففي بداية المرحلة مثلًا عند تسع وعشر سنوات يمكن أن يطول نشيد، كالنحلة مثلًا، سابق الذكر على النحو التالي:

في داخل الخلية شغالة دؤوبة تطير في الصبح وتقطع الدروبا
لتنتقي حقولًا أزهارها رطيبة لتنهل الرحيق من زهرة مرغوبة
وتجمع اللقاح في سلة عجيبة لتصنع الغذاء للملكة المهيبة
وتطعم الصغارا بهمة غريبة في داخل الخلية النحلة العفية
تهندس الخلية كاللوحة الفنية تصوغ في براعة أقراصها الشمعية
وتصب في العيون عصارة ندية فتصير عسلًا حلوًا هديتها الشهية
وتصب في الأواني خيوطه الذهبية سبحان من ألهمها النحلة الذكية
سبحان من أبدعها بهذه السجية

ونلاحظ هنا ليس فقط التفاصيل اللغوية التي تتناسب وقاموس الصغير بهذا العمر، ولكن أيضًا التفاصيل العلمية عن طبيعة دور النحلة الشغالة، الذي يتناسب مع النضج العقلي والفكري بهذه المرحلة.

بنهاية المرحلة يمكن أن يتم التدرج لأشياء أكثر تجريدًا تناسب بدايات مرحلة المراهقة وطبيعتها الفكرية في النمو، مثل قصيدة لتعيشوا في سلام، شعر (عبد الرازق الدرباس) للتعريف باليوم العالمي للسلام في ٢١ سبتمبر من كل عام؛ لتعزيز السلام ووقف العنف وإطلاق النار بكل دول العالم، من أجل مجتمعات أكثر أمنًا وسلامًا.

أشعلوا في الأرض ناري أحرقت كل الديار
وتبدت خلف ظهري كل أصناف الدمار
من ركام ودخان واعتداء كالضواري
وأنين ودموع شوهت وجه النهار

كم قتيل دون ذنب وضحايا أبرياء
فلماذا الحرب يا ناس وأنواع البلاء
أنقذوا طفلًا صغيرًا وكهولًا ونساء
لتعيشوا في سلام وازدهار وصفاء
هذه صرخات طفل تاه في ليل الدروب
اردعوا الظالم حتى توقفوا هذي الحروب
وازرعوا ورد الأماني في بساتين القلوب
واصنعوا عدلًا وسلمًا شاملًا كل الشعوب

٢. ما هي أنواع وأشكال شعر الطفل؟ أهدافه وأهميته في العملية النفسية والتربوية للطفل:

للشعر المقدم للطفل أشكال عدة، بيانها على النحو التالي:

أ. **القصة الشعرية:** وتعرف على أنها قصة تروى في أبيات شعرية منغمة، بها موسيقا تطرب الأذن، لغتها سهلة تحرك المشاعر، تبدأ مباشرة بلا أية مقدمات، تدخل في الأحداث مباشرة، وتستمد مادتها من الحياة الاجتماعية والتاريخية والأساطير والفن الشعبي. (دعاء ممدوح في فاطمة هاشم، ص ٧٨).

ب. **الأناشيد:** وتعرف على أنها قطع شعرية قصيرة تتميز بطرب الإيقاع، وعذوبة اللحن، وبساطة الألفاظ، ويسر المعنى، ويمكن أن تقدم عبر مراحل الطفولة من الرياض وحتى المرحلة الابتدائية. (عبد الرحمن الهاشمي في فاطمة هاشم، ص ٧٨).

ت. **الأغنية:** وتعرف على أنها أحد فروع التربية الموسيقية، وأقربها لنفوس الصغار. (مخلص محمود في فاطمة هاشم، ص ٧٨).

ث. **الأوبريت:** هو عبارة عن عرض مسرحي مضاف إليه الإيقاع المضبوط من البداية للنهاية. (فاطمة هاشم، ص ٧٩).

ج. **المسرحية الشعرية:** هي عبارة عن عرض تمثيلي تتخلله أغانٍ وأناشيد ملحنة. (فاطمة هاشم، ص ٧٩).

ح. **القصيدة الشعرية:** هي أبيات مقفاة من العبارات الموزونة، يمكن أن تكون بالعامية أو الفصحى، تتناول أي من الموضوعات الحياتية والاجتماعية والدينية والوطنية، وتتدرج من البساطة للتعقيد مع نمو الطفل عبر مراحله العمرية المختلفة، كما جاء في أمثلة عرض الجزء الأول عن شعر الأطفال.

أما عن أهداف، وأهمية شعر الطفل:

نجد أن شعر الطفل يهدف إلى تنمية شخصيته في جميع جوانبها، وهنا تكمن أهميته في أنه كشكل من أشكال أدب الطفل يستخدم في تربية النشء،

فعلى المستوى الوجداني ينمي الذائقة الجمالية من خلال اللحن والإيقاع والكلام المقفى المسجوع، كما أنه ينمي استعداده للشعور بالغير وبمن حوله؛ فيجعله مرهف الحس، ومن خلال الغناء الوطني والديني والقومي ينمى شعوره بذاته الجمعية وهويته الاجتماعية والمجتمعية، ويحفز انتماءه لها.

وعلى المستوى الاجتماعي فإن الاندماج مع أفراد الجماعة ينمي الشعور بهم، ويزكي التعاون معهم، ويصقل ذات الصغار الاجتماعية كذواتهم الوجدانية بالضبط، وكذا العقلية الفكرية في تنمية اللغة والتفكر في المعاني وتدبرها. فهو يكتسب خبرات متنوعة تنمو شخصيته من خلالها، ليصبح أكثر دماثة ونضجًا وإنسانيةً، فالشعر يجعل تربية الشخصية الإنسانية تسير نحو هذا الدرب.

لذا فمن الأهمية بمكان انتقاء الشعر المقدم للمتلقي، لا سيما الصغار؛ لأنهم في مرحلة بلورة شخصياتهم بعد، وتتشكل الشخصية بشكل سليم متى ما تم تقديم روافد مناسبة تربويًا ونفسيًا لها. ومن هذه الروافد المواد المقدمة للطفل كأدب الطفل وشعره، فمن حيث الشكل من الأهمية بمكان مراعاة تناسب المادة الشعرية المقدمة مع العمر، فالشعر الطويل غير المفهوم لن يجدي مع الطفل، بل على العكس قد يسبب له الإحباط لصعوبة تعاطي الطفل معه، ولقصر فترة تركيز الطفل وبالتالي استفادته منه، مما يجعله لا يصل للمتلقي ولا ينميه؛ لذلك ينبغي مراعاة الخصائص العمرية لكل مرحلة بحيث يتم تقديم المناسب في الوقت المناسب.

ومن حيث المحتوى يجب أن تتضمن ما يرقي ويهذب من شخصية الصغار، بالبعد عن الكلام المسف عديم المعنى والجدوى، ليتم تقديم محتوى ينمي الشخصية من جميع جوانبها، وذلك أيضًا بحسب طبيعة قدرات واحتياجات كل مرحلة عمرية في الطفولة.

٣. أدب الطفل بمصر وتطوره: تاريخ دخول الشعر والكتابة للطفل بمصر

كان المحور الذي يرتكز عليه أدب الأطفال عامة في العصور القديمة هو سرد حكايات، سواء قصصية أو مغناة شفاهة من خلال أساطير ذات تأثير على أفراد المجتمع، وكان الهدف منها هو غرس الشعور بالولاء للمجتمع والحفاظ على تقاليده في نفوس الأطفال. ظهر هذا في الحضارات القديمة بعامة. أما أول القصص المكتوبة التي عرفتها البشرية كانت على ورق البردي وبقيت فيها الحكايات كما الأساطير في طابعها.

أما في العصور الوسطى فتميز أدب الطفل عامة بأنه يسرد قصص وبطولات الأنبياء والرسل أو القادة لتلك المجتمعات، وقصص الأمم والشعوب كقصص واقعية تنمي الولاء والانتماء في نفوس الصغار، وترسخ للقيم والسلوكيات الإيجابية البناءة كقدوة، مثل قصص (عنترة بن شداد)، و(سيف بن ذي يزن) في التراث العربي لدينا. (إعجاز أحمد، ص١).

وفي العصر الحديث بدأ أدب الأطفال من فرنسا، بالقرن السابع عشر على يد الشاعر (تشالز بيرو) والذي كان يكتب متخفيًا باسم مستعار مخافة التقليل من شأنه، لكنه لما لاحظ الإقبال الشديد لما كتب ألف مجموعة أخرى من القصص باسمه الفعلي. وتلته سيدة فرنسية بنفس القرن. وفي القرن الثامن عشر ظهر (جان جاك روسو) بكتابه عن الطفل وللطفل، وأصدر أول صحيفة للأطفال باسم (صديق الأطفال). (إعجاز أحمد، ص ٢).

وفي مصر ظهر أدب الأطفال في العصر الحديث في عهد (محمد علي باشا)، عن طريق الترجمة، عن طريق الاحتكاك بالثقافة الغربية، فظهرت التجارب الأولى في شعر الأطفال . وظهر ذلك أول ما ظهر على يد (رفاعة الطهطاوي) (١٨٠١ – ١٨٧٣)، إذ كان له فضل كبير في ثقافة الأطفال في مصر، فأدخل القصص والحكايات المناهج المدرسية، وكان رائد صحافة الأطفال من خلال مجلة روضة المدارس المصرية عام (١٨٧٠)، ووضع أولى محاولات شعر الأطفال من خلال النشيد المدرسي، مثل نشيد (حب الوطن):

يا صاح حب الوطن حلية كل فطن

محبة الأوطـــــان من شعب الإيمان

وشعره في السلوك الطيب والعادات الصحية والخلق الحسن، مثل:

من رام أن يكتسب اللطافة عليه طول العمر بالنظافة

فإنها من شعب الإيمان تطلب في الثياب والأبدان

وشر أوصاف الفتى هو الغضب يفضي لارتكاب كل ما لا يرتكب

مما يعد من صفات الذم كتم الصغير عن كل أب وأم

سرًا حقيرًا أو جليلًا بل يجب إبداؤه وعنهما لا يحتجب

وتلا (الطهطاوي) (أحمد شوقي) والشاعر (محمد عثمان جلال) الذي ترجم الكثير من الأشعار للطفل من الفرنسية.

(بيان الصفدي، ص١٠٥-١٢٧)

لكن الخطوة الكبيرة في كتابة أدب الطفل وشعره في العالم العربي الحديث كانت على يد أمير الشعراء (أحمد شوقي)؛ لأنه أول من ألف أدبًا للطفل بالعربية، وكان له أكثر من خمسين قصة شعرية للأطفال، ونظم الأناشيد والأغنيات بأسلوب سلس يتسم بوضوح الهدف التربوي، إلى جانب التسلية والترفيه. فقد أعطى الأطفال من خلال قصصه الشعرية وأناشيده صورة واضحة لمجتمعهم الذي يعيشون فيه، ولمشكلات حياتهم التي سيواجهونها. واستخدم قصص الحيوان بكل ما فيها من متعة وتشويق حرصًا على تنمية إحساسهم بجمال الكلمة وقوة تأثيرها، فكانوا يأخذون الحكمة على قدر عقولهم. (إعجاز أحمد، ص٣).

ومن أمثلة شعر أمير الشعراء للأطفال في الطفولة الوسطى والمتأخرة: قصيدة (الديك والثعلب):

برز الثعلب يومًا في شعار الواعظينا فمشى في الأرض يهذي ويسب الماكرينا

يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبينا وازهدوا الطير فإن العيش عيش الزاهدينا

واطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا

فأتى الديك رسول من إمام الناسكينا عرض الأمر عليه وهو يرجو أن يلينا
فأجاب الديك عذرًا يا أضل المهتدين بلغ الثعلبَ عني عن جدودي الصالحينا
عن ذوي التيجان ممن دخل البطن اللعينا أنهم قالوا وخير القول قول العارفينا
مخطئٌ من ظن يومًا أن للثعلب دينا

(http://haybinyakzhan.blogspot.com/٢٠١٤/١٠/blog-post_٢١.htm)

ومن أبرز من تلا (شوقي) الشاعر (محمد الهراوي) (١٨٨٥-١٩٣٩)، حيث كتب العديد من الأشعار للأطفال من عشرينيات القرن الماضي، وحتى وفاته، وكان أول من أدخل الصور على كتابات الأطفال، وتميزت كتاباته بالبساطة والطرافة والرشاقة والتنوع، بحيث تراعي الطفل نفسيًا ولغويًا، ومن ثم تربويًا. (بيان الصفدي، ص ١١٤-١١٥).

ومن أمثلة شعره:

في مصر دار للكتب يؤمها أهل الأدب
معرضها ذو الطرف مزين بالتحف
من صور العظام وكتب الأعلام
فللعلوم راجعي وللكتاب طالعي
فالعلم في الكتاب تغذية الألباب

كذلك كتب عن شرف التعلم والعمل نشيد (التلميذ) الرائع للطفل:

أنا في الصبح تلميذ وبعد الظهر نجار
فلي قلم وقرطاس وإزميل ومنشار
وعلمي إن لم يكن شرفا فما في صنعتي عار
فللعلماء مرتبة وللصناع مقدار (إعجاز، ص ٥).

ومن أبرز من تلا (الهراوي) (كامل كيلاني) (١٨٩٧-١٩٥٩)، إذ كان من أشهر الأدباء الذين تفرغوا لأدب الطفل تأليفًا وترجمة لكل صنوف الأدب فقدم للمكتبة العربية والمصرية مشروعًا ثقافيًا متكاملًا لأدب الطفل وأشعاره. ومن أشعاره المميزة قصيدة (الحيوانات)، منها:

جمع من الحيوان قد سعدوا وطاب لهم المقام
متعاونين على الحياة بكل جد واهتمام
قد أخلصوا وصفت قلوبهم فعاشوا في وئام
في كل شيء قلدوا الإنسان إلا في الكلام

وتلا هؤلاء الرواد العديد من الشعراء أمثال الشاعر (أحمد رامي) شاعر الشباب الذي كتب قصيدة عن الطفل في وصف حفيدته (رانيا):

أنا أحب رانيه قرة عيني الغاليه
إذا رأيت وجهها نسيت كل ما بيه
أشتاق أن أضمها وهي عليا حانيه
وأستطيب قبلة من العيون الساجيه
لله ما أجملها حين تكون راضيه
وما أرق خطوها رائحة وغادية

كذلك الشاعر الرومانسي الكبير (إبراهيم ناجي) من أبرز أعماله الشعرية للطفل نشيد (الطالبة)، والشاعر (محمود أبو الوفا) الذي كان يكتب الحكاية الشعرية والأغاني والأناشيد للطفل، ومن أبرز حكاياته الشعرية للطفل نشيد (الطاووس). ومن أبرز من كتب قصائد المناسبات للأطفال (سعيد جودة

السحار) وكان ذلك لأطفال المرحلة الابتدائية. (بيان الصفدي، ص ١١٦-١٢٥).

وهناك العديد والعديد من الشعراء والشاعرات الذين لا يتسع المقام لذكرهم، بل فقط جاء سرد الرواد الذين بنوا هذا الصرح العريق، وعلى شعراء الحاضر يتوقف مستقبل شعر الأطفال في مصر وصياغة وتشكيل الهوية والوعي والوجدان الوطني العام، ومن ثم تربية وبناء الشخصية.

معايير اختيار الشعر المقدم للطفل

كيف يمكن أن نقدم شعر الطفل بحيث يمكن تنميته من خلاله وتطوير شخصيته، وربطه بهوية أمته؟

يبدأ حب الطفل للشعر من أغانٍ وهدهدات المهد؛ ففي مرحلة الرضاعة ورياض الأطفال قبل المدرسة يميل الطفل بالفطرة للموسيقا، وبالتالي الكلام المسجوع المقفى الموزون، فالأطفال إيقاعيون بالفطرة وهذا يشبع عندهم الحاجة للأمن والحب. ويذكر (هادي نعمان الهيتي) أن الطفل إيقاعي بالفطرة؛ إذ يكف عن البكاء بالربت عليه وهدهدته، حتى يذهب في سبات عميق بمثل هذا الإيقاع. (محمد أبو طاحون، ص ٥٢٣-٥٢٥).

والأطفال بطبيعتهم ميالون للأغاني والأناشيد، فهم يمرحون وينشطون بها وتترك في نفوسهم أثرًا إيجابيًا عميقًا؛ إذ تشكل وجدانهم وتربيهم وتنمي شخصياتهم، كما أنها وسيلة لدمجهم اجتماعيًا إذ تعالج خجلهم وترددهم، وتنمي لغتهم وتبعث فيهم السرور.

وهناك معايير لاختيار الشعر المقدم للطفل لتربيته وتنميته من خلاله، تتمثل في: بساطة الفكرة، ووضوح الأسلوب والمعنى، أن تكون ذات هدف تربوي وتعليمي وأخلاقي، ترتبط بالمعجم اللغوي للطفل، ومرحة وممتعة وذات حيوية، وتدخل السرور على نفس الطفل، وتنمي الخيال وتوقظ المشاعر والإحساس بالجمال، وجيدة الحبكة فكرًا وتقديمًا في القوافي والكلام المسجوع ذي المعنى، ومتنوعة لتشمل النشيد والقصة الشعرية والقصيدة والمسرحية والألغاز، تراعي مراحل نمو الطفل في العرض والمحتوى، وتستمد مادتها من بيئتنا وتراثنا. (شحاتة العشرة في محمد أبو طاحون ص ٥٣٤).

ومن أمثلة ذلك ما سبق ذكره من أشعار الرواد، وكذلك نشيد (وطني) التالي:

وطني وطني أرض الحب
وطني الفن وطني الكتب
شعبي أسد ضد الظلم
وفراشات وقت السلم
وطني وطني وطن الشمس

وكذلك:

يا أوطاني بالأحضان
عشت قوية عشت أبية

عشت مثالًا للحرية (محمد أبو طاحون، ص ٥٣٧)

٤. ماهية الهوية في علم النفس الاجتماعي: كيف أعي هوية ذاتي وهوية الآخرين؟:

الهوية هي مجموعة الصفات والخصائص والمؤهلات والمعتقدات الشخصية والجماعية التي تميز فردًا عن آخر أو مجموعة عن أخرى.

(الهوية، ص ١)

تتكون الهوية الشخصية مع النمو، فكلما تفاعل الصغير مع الآخرين، وكلما مر بخبرات وتجارب يكون وعيه بذاته وسمات شخصيته سواء ذاته الجسدية الفيزيقية وشكله وقدراته الجسدية أو خصائصه النفسية وقدراته العقلية ومشاعره نحو نفسه وغيره كل ذلك يجعله يحدد هدفه في الحياة أو أهدافه التي يسعى لتحقيقها من خلال الحصول على أدوار اجتماعية معينة، وبقدر اتساق رؤيته لذاته مع أهدافه وقدراته تكون هويته الشخصية متوازنه، وبقدر إخفاقه في تحقيق أهدافه واضطراب أدواره تضطرب هويته الشخصية.

وتختلف الهوية الشخصية عن الاجتماعية في أن الأولى تميز ذوات الآخرين في إدراكهم لأنفسهم، بينما الهوية الاجتماعية تميز مجموعة من الأفراد في إدراكهم لسمات مجتمعهم الفريدة التي تميزه عن المجتمعات الأخرى. والهوية الاجتماعية تعبر عن نهج جماعي في إدراك الجماعة لذاتها. عن إدراك الأفراد لمن حولهم، واختلافاتهم الدينية والطبقية والاجتماعية وانتماءاتهم المختلفة.

ومن النظريات الأساسية التي تدرس الهوية الاجتماعية نظرية الهوية الاجتماعية (social identity theory): وهي النظرية التي تدرس شعور الفرد بذاته، وبمن يكون بناء على عضويته في جماعة اجتماعية معينة، بمعنى أن مفهوم الشخص لذاته جزء منه قائم على تصوره لماهية وخصائص ومكانة

جماعة الانتماء والعضوية التي يكون هو جزء منها. (محمد السعيد أبو حلاوة، ص١-١٢). وتدرس هذه النظرية العلاقات بين الجماعات داخل نفس المجتمع وبين المجتمعات.

وبقدر اتساق تفاعل أفراد الجماعة معًا، ما يدل هذا على التوازن الاجتماعي المميز لهذه الجماعة وبقدر اتساق تفاعل الجماعات معًا بذات المجتمع يتسق هذا المجتمع مع نفسه ويتميز عن غيره، بقدر اتساق العقل والشعور الجمعي بقدر توازن واتساق الهوية الجمعية لهذا المجتمع. وبقدر ما يحدث هذا بين مجتمعات الأرض قاطبة بقدر ما يتجانس البشر سويًا على رحابة الأرض واتساعها.

الهوية الثقافية والهوية الوطنية والبناء الاجتماعي للمجتمع:

الهوية الوطنية:

تعرف على أنها القاسم المشترك لمكونات الدولة أو الوطن بعناصره الثلاثة: الفرد، والشعب، والحكومة، أو الجهاز الإداري الحاكم. وفيها يتميز الشعور بالذات الوطنية وغلبتها على الذات الفردية والجماعية الضيقة. وتظهر من خلال الانتماء بكل السلوكيات الدالة عليه من السعي الدؤوب لإعلاء شأن الوطن باعتباره امتدادًا لذوات أفراده. والهوية الوطنية أساس قيام الدول وديمومتها وتماسكها وبقائها. (لبانه مشوح، ص ٥-٦).

الهوية الثقافية:

يمكن تعريفها على أنها الطابع القومي للشخصية ونمط الحياة السائد في مجتمع معين (نجوى يوسف، ص٣٥)؛ إذ تميز أبناء ثقافة واحدة عن غيرهم، من حيث هي أسلوب العيش المشترك والعقيدة واللغة والتاريخ والمصير، فهي روح الأمة ورمز وحدتها واتساقها واستمراريتها، إذ تتفاعل بأرضية مرجعية واحدة، لتميز هوية شعب يعيش على أرض جغرافية واحدة، لتحدد الأنا الجمعية، بما فيها من خصوصية وعمومية وتنوع. (خالد حامد، ص ١٢٩-١٣١).

وتعرفها اليونسكو على أنها: الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، فهي أسلوب حياة جماعة تميزها بعاداتها وتقاليدها وأحاسيسها وفكرها المشترك. (نجوى يوسف، ص٣٩)، ويعرفها حامد عمار على أنها مجموعة الأفكار والعادات والتقاليد والمعتقدات والاتجاهات، وأساليب التفكير التي تميز مجتمعًا عن آخر، فهي من الثوابت الراسخة في الثقافة، وهي كهوية الفرد تنمو وتتطور مع المعايشة عبر الزمان والمكان. (نجوى يوسف، ص ٣٩). وتتحدد مقومات الهوية الثقافية في الدين واللغة والتراث والتاريخ. (نجوى يوسف، ص٤١).

وظائف الهوية

للهوية وظيفتان أساسيتان: أولهما اجتماعية تصهر بوتقة من الأفراد في نظام عقائدي واجتماعي وأخلاقي واحد، بحيث تصنع لهم عقلًا جمعيًا، وضوابط ووجدانًا مشتركًا ومرجعية واحدة، في كيان واحد يتجاوزهم ويشملهم

جميعًا. والثانية وظيفة نفسية إذ تقولب الشخصية فكرًا وسلوكًا وعاطفةً مع الجماعة. (خالد حامد، ص ١٣٣-١٣٥).

أزمة الهوية: العوامل المؤثرة سلبًا على الهويات الثقافية للمجتمعات:

١. العولمة:

يصف الكتاب والمفكرين العالم الذي نعيشه اليوم، عالم ما بعد الحداثة على أنه عالم التحولات الكبرى في المجتمعات؛ فمن مجتمع الصناعة لمجتمع المعلومات، ومن الصناعات التقليدية للصناعات الذكية، ومن الاقتصاد القومي للاقتصاد العالمي، ومن العمل التجاري ذي المدى القصير للعمل التجاري ذي المدى البعيد، ومن المركزية إلى اللامركزية، ومن اعتماد الفرد على المؤسسات إلى مساعدة الذات، ومن التمثيل الديمقراطي إلى ديمقراطية المشاركة، ومن التنظيم التراتبي للتنظيم الذي يعتمد على بناء الاتصالات، ومن محدودية الخيارات لتعددها، ومن الإنتاج الصناعي للخدماتي. (سليمان نجم خلف، ص ٥٩).

وتتمثل خطورة العولمة في التأثير سلبًا على الهوية الثقافية للمجتمعات في صياغة ثقافة عالمية لها قيمها ومعاييرها هي ثقافة السوق، تجاوز النخبة الثقافية وتسلب الخصوصية الثقافية، بقطع الصلة بين الأجيال الجديدة وماضيها، والتأكيد على النجاح الفردي وتجميع الثروة، وتهميش الثقافة الوطنية واحتكار الصناعات الثقافية، ووضع حالة من الإبهار أمام المثقف الوطني، وإنهاء رقابة الدولة على وسائل الإعلام، والتخلي عن الخصوصيات الوطنية، وإضعاف البعد التربوي للتربية، وتوجيه المعرفة بحسب القوة التي تمتلكها، وربط

العلماء والباحثين بولاءات معينة للشركات المستغلة، ونشر مفاهيم البرجماتية. (حكمت عبد الله البزاز في نجوى يوسف، ص ٤٢).

٢. **الصراعات الثقافية الداخلية:** المتمثلة في انتشار نزعات التفرقة القبلية، والعنصرية والتعصب.

٣. **عوامل التصدع السياسي:** الذي عانته مجتمعاتنا العربية مع الغزو الاستعماري الغربي لها لعقود طويلة.

٤. **الإمبراطوريات الإعلامية خارج سيطرة مجتمعاتها:** والتي يستقبلها الملايين من الشعوب عبر العالم، والتي تقدم القدوة والقيم والرموز وتصنع الوجدان والذوق وتشكل الوعي، الأمر الذي يجعل شبابنا في النهاية في أزمة فكرية يعبر عنها، إما بالانسحاب والاغتراب، أو بالعنف والعدوان، وكلاهما خطير.

٥. **الهيمنة الاقتصادية:** بتعميم وتأكيد ثقافة تبعية الشعوب الفقيرة للدول المتطورة المصنعة التي تحميها وتغنيها، مما يؤدي لفقدها لهويتها وخصوصيتها الثقافية.

٦. **هجرة العقول:** الأمر الذي يؤدي لإضعاف الثروة البشرية للشعوب ذات الكفاءات المهاجرة، ويحول دون تواصل التراث الثقافي لهذه الشعوب واستمراريته وتنميته. (نجوى يوسف، ص ٤٩-٥٤).

٧. وظائف الهوية، وطبيعتها في مرحلة الطفولة:

تتمثل إشكالية تربية الطفل في العصر الحديث في تحقيق التوازن ما بين الذات الجمعية الثقافية الخاصة، وطوفان العولمة والانفتاح على الآخر من جهة أخرى. فليس معنى التعايش مع الآخر التبعية له أو ذوبان خصوصية الذات وهوية الوطن مع الغير، وبالتالي على مؤسسات التنشئة الاجتماعية في الطفولة أن تتضافر لتربية الصغار على تكوين هوية ذات تمتد لذات مجتمعاتهم من خلال توعيتهم بتراثهم الثقافي والحضاري وإرثهم الإنساني الممتد عبر السنين والمستمر، إشكالية التربية وتحديها في التوعية دون انغماس، في إثارة البعد الوجداني من حب وتقدير من شأنه أن ينمي الانتماء للوطن_بكل رموزه ونضاله وتاريخه وفكره ووجدانه حتى نتقدم نحو الأمام، لنأخذ من الغير أفضل ما أنتج فكرًا وثقافةً وعلمًا، ونعطيه أيضًا فكرًا وثقافةً وعلمًا.

إشكالية الهوية الثقافية للطفل المصري

تتمثل هذه الإشكالية في عدم التوازن في التربية ما بين الخصوصية الثقافية والعمومية الدولية، وتتضافر مجموعة من العوامل محدثة هذا (محمود مدحت، ص ١٤٣–١٥٠، بكثير من التصرف)، أذكرها على النحو التالي:

١. التعليم: وتتمثل مشكلة التعليم في عدة صور:

تنوع التعليم ما بين الحكومي والخاص والأجنبي، ولكل ثقافته المغايرة التي تنشئ أجيالًا غير متجانسة، ثم مشكلة المناهج التي لا توازن فكرًا ومحتوى بين التراث والجديد في العلم بالعالم، مشكلة التدريس والتقييم وأسلوب العمل التي لا تعد متخصصًا مدرَّبًا بشكل مناسب، مؤهلًا لسوق العمل، ولمواكبة التغيرات مع الإضافة لما هو كائن لدينا وتطويره، حيث القطيعة المعرفية بين الماضي؛ لننسج منه الحاضر ونشكل المستقبل.

٢. تعدد الوسائط الثقافية بالمجتمع دون تجانسها

يتنوع الوسيط الثقافي للطفل ما بين وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية: إذاعة، ومجلات، وكتب، وقصص، وتلفاز، وجميعها تحتاج لمزيد من الجهد كي تساهم في استمرارية التراث المجتمعي من جهة وتنميته من جهة أخرى بشكل متجانس متطور بمضمون وعرض يجذب الطفل وينميه. وبالإضافة للجهات الوطنية أو المحلية هذه يوجد سينما ومسرح الطفل، ويسري عليه ما يسري على ما سبق، مع توازي الإعلام الرقمي الدولي بما هو مطروح في الشبكة العنكبوتية الدولية وما هو مقدم في الفضائيات من محتوى جذاب وشيق، ولكن يبعد بنا عن تنمية الهوية المطلوبة، بل على العكس يسير بنا في اتجاه مضاد، من شأنه إحداث بلبلة في تنمية شخصيات متجانسة ذات هوية وطنية واضحة.

٣. ضعف دور الأسرة وانحلالها

إن المشاكل التي تعانيها الأسر من انحلال واضطراب وتفكك بالطلاق تؤثر بالسلب في تشكيل شخصية ذات هوية متجانسة، ناهيك عن عدم وعي كثير من القائمين على التنشئة الأسرية بأساليب تنمية الشخصية، وبث روح الانتماء للوطن وتنمية ثقافته وهويته الخاصة، مثل هذه المصادر تكون بعيدة عن وعي الطفل وتغذيته الفكرية والوجدانية بها بشكل مستمر.

مما سبق تتبلور مشكلة أو إشكالية المقالة البحثية في أن تغير النظام العالمي لم يوازيه تغير في أنظمة إعداد وتربية النشء بالقدر الذي يحمي ويصون وينمي الهوية الثقافية الوطنية، ولحل أو معالجة هذه الإشكالية نحتاج، كما عرضت المقالة البحثية إلى:

- الوعي بجذورنا جيدًا، حتى نعرف كيف نظهرها وننميها.
- الوعي بطبيعة التغير العالمي وآلياته؛ حتى نعرف كيف نتعامل معه بما يعود بالنفع علينا.
- وبالتالي تكون الخطوة التالية عرضها في مرتكزات تنمية الهوية في العصر الراهن من خلال موضوعنا في الشعر المقدم للطفل.

٨. القيم المتضمنة بشعر الأطفال، وعلاقتها بإشكالية تنمية الهوية الثقافية والوطنية عند الصغار

وذلك من خلال استعراض بعض النماذج لهذه القيم من عدد من الأعمال الشعرية المكتوبة عبر فترات زمنية مختلفة، وفي هذا البند سأوضح أولًا مرتكزات تنمية الهوية الثقافية الوطنية، ثم القيم المتضمنة بشعر الطفل، والتي من شأنها تطبيق هذه التنمية فعليًا على أرض الواقع.

أولًا – بالنسبة لمرتكزات التنمية للهوية الوطنية الثقافية، فتتمثل في:

١. توعية الصغار بتراثهم الحضاري الوطني والإقليمي العربي: من خلال الوقوف على جوانب القوة لتنميتها، وإيضاح جوانب الضعف للبعد عنها، وذلك بالأسلوب المناسب لطبيعة مرحلته العمرية، ووعيه وإدراكه.

٢. تنمية وعي الطفل بالحضارات الأخرى: الذات الجمعية (نحن)، والذوات الأخرى (الآخر)، للتمييز بين هذا وذاك، مع تنمية احترام الاختلاف، والتعايش معه بشكل متجانس متكامل دونما انغماس كلي أو رفض تام، لنأخذ أفضل ما لدينا ولديهم، ونطور من أنفسنا دون أن نفقدها طابعها الخاص.

٣. تعزيز وتطوير برامج التنشئة الاجتماعية في مؤسساتها، وتطوير برامج التوعية الوالدية؛ بما يساعدهم على توفير مناخ مناسب للنمو السوي في جميع جوانبه.

٤. تحسين أداء الوسائط الثقافية وتعزيزها بالإمكانيات؛ للارتقاء بالمضمون والمحتوى.

٥. تطوير التعليم باعتباره منتجًا للتغيير والتطوير.

٦. محو الأمية القرائية والثقافية بوجه عام.

٧. توفير الشروط الاجتماعية والسياسية لحل مشكلة الازدواجية الثقافية بكافة قطاعات المجتمع. (محمود مدحت، ص ٤٨-٤٩ بتصرف).

ثانيًا - بالنسبة لتطبيق هذه الأهداف على الشعر المقدم للطفل من أجل تنميته وصقل هويته الثقافية الوطنية، يتبين ما يلي:

- من الدراسات المسحية التي قام بها الباحثون عن القيم المتضمنة بشعر الطفل، والتي من شأنها أن تنمي لديه الهوية والانتماء للثقافة الوطنية، دراسة (صبري عثمان أحمد) عن القيم التربوية المتضمنة بشعر الطفل منذ بداياته وحتى الربع الأول من القرن العشرين، وبتحليل محتوى المواد الشعرية المقدمة للطفل بهذه الفترة تبين احتواؤها على القيم الآتية فقط وبهذه النسب: القيم الأخلاقية والدينية: ٣١%، والقيم الاجتماعية ٣٠%، والقيم الاقتصادية ١١%، والقيم الذاتية ١٠%، والقيم السياسية ٩%، والقيم الترويحية ٦% . وقد تبين أن شعر الطفل يشمل في أكثر من ٨٧% منه قيمًا إيجابية. (صبري عثمان أحمد، ص ٢٥٧-٢٦٢).
- أما المعالجات القيمية بشعر الأطفال الحديث من النصف الثاني من القرن العشرين وحتى يومنا هذا، فقد ركزت على: التراث الشعبي والقيم المتضمنة فيه، مثل أعمال (سمير عبد الباقي)، والقيم الإيجابية الاجتماعية، مثل أعمال (أنس داوود)، والقيم الجمالية، مثل أعمال (أحمد الحواتي)، و(نشأت المصري)، و(أحمد زرزور) الذي رأس تحرير مجلة

(قطر الندى) لقصور الثقافة للأطفال، حيث ركز على هذه القيم في الطبيعة من خلال كتابات متعددة بأشكال شتى من الأدب، وبلغة سلسلة يستسيغها الطفل ما بين العامية والعربية أو بالفصحى البسيطة. وأخيرًا القيم العلمية والثقافة الإلكترونية، كما في أعمال (أحمد فضل شبلول). (عبده الزراع، ص ١٦٧-١٧٩).

مما سبق يمكننا أن نخلص لمجموعة من النتائج والحلول والمقترحات على النحو التالي:

١. نحن بحاجة للمزيد من الدراسات المسحية القيمية التحليلية لمضمون شعر الطفل وشكله التقدمي، والتي ليس فقط تسرد القيم، بل تعطي أوزانًا نسبية لها، وترصد تفاعل الطفل معها، ومدى التأثر بكل نوع؛ بحيث يتم تقديم الأنسب والذي من شأنه أن يكون أكثر تأثيرًا عند ربطه بالهوية الوطنية الثقافية.

٢. تنوعت وتباينت القيم المقدمة في شعر الطفل على مدى قرن من الزمان، حيث بدأ الأدب عمومًا المقدم للطفل من الترجمة، ثم التأليف بما يلبي حاجات المجتمع بكل فترة زمنية. فنجد أن القيم فترة الاحتلال ركزت على الدين والخلق، ثم السياسية، بينما لم يحدث هذا فترة السلم، ونجد قيمًا ممتدة ومستمرة عبر الأزمنة كالقيم الاجتماعية، ثم ظهرت القيم الجمالية أكثر وقت السلم، ومع الاجتياح التكنولوچي للعالم برزت أهمية قيمة العلم لتوظيف التكنولوچيا لصالحه، ولخدمة الإنسان والأوطان.

٣. نحن نحتاج لإحياء دواوين الشعر المقدمة للطفل على أيدي رواده، أمثال: أمير الشعراء (أحمد شوقي)، و(كامل كيلاني) و(محمد الهراوي)، وغيرهم، بما ينمي ليس فقط لغة الطفل، بل وأيضًا وجدانه وانتماءه لوطنه، ووعيه بالحياة الاجتماعية وطبائع ونفوس البشر، الأمر الذي سيكون له مردوده الإيجابي في تنشئته تنشئة سوية ومتكالمة ومتزنة قدر الممكن.

٤. إدراج مثل هذه الأعمال الهادفة القيمة ليس فقط بمناهج الدراسة، ولكن بكافة ينابيع التنشئة المجتمعية: إعلام، ودور ثقافة، وأندية اجتماعية ورياضية، وهكذا.

٥. أن تواكب الأعمال الحديثة أعمال الرواد فكرًا وأسلوبًا مع تطويع المحتوى لتحقيق الأهداف الوطنية المنشودة.

٦. توعية الآباء والمعلمين بأهمية شعر الأطفال كأحد روافد التربية المهمة المتجانسة مع طبيعة شخصية الطفل، والتي تسهم في تنميته بشكل تلقائي.

المراجـــــع:

- إعجاز أحمد: مجلة نقيب الهند – مجلة فصلية أدبية علمية ثقافية إلكترونية – موضوع تطور أدب الأطفال في مصر: ٢٠١٩http://naqeebulhind.hdcd.in.
- بيان الصفدي: تجربة شعر الأطفال في مصر، مطبوعات وزارة الثقافة المصرية، مجلة المعرفة، العدد ٥٢٧. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). ٢٠٠٧.
- خالد حامد: الهوية والبناء الاجتماعي: مجلة الحكمة: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع: العدد ١٦. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). : ٢٠١٣
- سليمان نجم خلف: العولمة والهوية الثقافية: تصور نظري لدراسة نموذج مجتمع الخليج والجزيرة العربية، المحلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، المجلد ١٦، العدد ٦١. ١٩٩٨.
- صبري عثمان أحمد: القيم التربوية المتضمنة في شعر الأطفال في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، رسالة ماچستير، جامعة جنوب الوادي بسوهاج، الملخص، دار المنظومة، بنك المعرفة المصري. ١٩٩٧.

- عبده الزراع: المعالجات القيمية في شعر الأطفال الحديث في مصر، مجلة الطفولة والتنمية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، عدد الشتاء. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). ٢٠٢٢.
- فاطمة هاشم: تحليل مستوى شعر الروضة في ضوء معايير الشعر: مجلة الطفولة والتربية – مجلد ٧ – عدد ٢٢ – كلية رياض الأطفال – جامعة الإسكندرية. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). ٢٠١٥.
- القصائد بالجزء الأول من المقالة: ١- ماهو شعر الأطفال؟ مصدرها: مجلة العربي الصغير – عددي مايو وسبتمبر ٢٠٢٣ – الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت.
- لبانه مشوح: الهوية الوطنية: مجلة المعرفة: وزارة الثقافة: العدد ٦٩٨، ٦٩٩. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). ٢٠٢١.
- محمد أبو طاحون: شعر الأطفال في مناهج الحلقة الأولى من التعليم الأساسي بمصر ٢٠١٣-٢٠١٤ دراسة وصفية نقدية – المؤتمر العلمي الرابع لكلية التربية جامعة الفيوم بعنوان: التربية وبناء الإنسان في ظل التحولات الديمقراطية. (بنك المعرفة المصري: موقع دار المنظومة). ٢٠١٤.

- محمد السعيد أبو حلاوة: فهم نظرية الهوية الاجتماعية وتأثيرها على السلوك: http://arabpsynet.com/Documents/DocAbouHalawa-SocialIdentityTheory.pdf. ٢٠٢٣.

- محمود مدحت: الهوية الثقافية للطفل المصري، رؤية من الواقع المصري، مجلة الطفولة والتنمية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، مجلد ١، العدد ٣. ٢٠٠١.

- مدونة حي ابن يقظان لأدب الطفل: دار ثقافة الطفل: العراق: الزيارة أكتوبر ٢٠٢٣، http://haybinyakzhan.blogspot.com/٢٠١٤/١٠/blog-post_٢١.html (أشعار أحمد شوقي للأطفال).

- المعجم العربي الأساسي: أحمد العايد وآخرون: لاروس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: تونس. ١٩٨٨.

- نجوى يوسف جمال الدين: الهوية الثقافية المفهوم والخصائص والمقومات: مجلة جامعة القاهرة ، كلية الدراسات العليا للعلوم التربوية، العدد ٣ المجلد ٢٤. ٢٠١٦.

- الهوية: موقع معرفة https://www.marefa.org. ٢٠٢٣.